بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

داريا دمشق: هي دار الحديث النبوي.

وهي مَقَرُّ الصحابة الكرام أمثال بلال الحبشي، وأبي ثعلبة الخشني، وأبي راشد الخولاني، وغيرهم..

وهي مسكن كثير من التابعين الأفاضل أمثال أبي مسلم الخولاني، وأبي إدريس الخولاني، وأبي قِلابة الجَرْمي، وغيرهم..

وهي مدرسة المحدِّثين من أبنائها وأبناء مدينة دمشق وما حولها: فيها يقول المحدِّث الداراني عبد الرحمن بن يزيد ـ من أهل القرن الثاني الهجري ـ: «من أراد العِلم فلينزل بداريا بين عنس وخولان».

وفيها تخرَّج ودرَّس القاضي الخولاني ـ من أهل القرن الرابع الهجري ـ وألَّف كتابه (تاريخ داريا) في تراجم المحدِّثين الدارانيين حتى أيامه.

وعنها قال السمعاني صاحب كتاب (الأنساب) ـ من أهل القرن السادس الهجري ـ عندما زارها: «وكان فيها جماعة كثيرة من العلماء والمحدِّثين قديماً وحديثاً».

وفيها تخرَّج ودرَّس الحافظ ابن عساكر ـ من أهل القرن السادس الهجري ـ وألَّف كتابيه (روايات ساكني داريا) و(مسنَد أهل داريا) في تراجم وروايات المحدّثين الدارانيين حتى أيامه.

وفيها تخرَّج الحافظ المزي صاحب كتاب (تهذيب الكمال) ـ من أهل القرن الثامن الهجري ـ.

وفيها تخرَّج الحافظ ابن طولون الصالحي ـ من أهل القرن العاشر الهجري ـ وألَّف كتابه (تبليغ البشرى في أحاديث داريا الكبرى).

وعنها ألَّف مفتي دمشق عبد الرحمن العمادي ـ من أهل القرن الحادي عشر الهجري ـ كتابه (الروضة الريَّا فيمن دفن بداريا).

وعنها ألَّفتُ هذا الكتاب؛ ليكون خاتمة المطاف؛ حتى أوائل القرن الخامس عشر الهجري. وما أراني وفَّيتُها حقها.

❑❑❑

ذات يوم من أيام الطلب في الجامعة ـ في عقد الستين من القرن العشرين الميلادي ـ كنت مع صديق لي نمشي الهوينى في باحة جامعة دمشق؛ فالتقينا مصادفةً بشيخ العربية في الشام في وقته؛ الأستاذ أحمد راتب النفاخ رحمه الله، ولم أكن التقيته قَبلاً، أما صديقي فكان يعرفه معرفة التلميذ المجتهد لأستاذه، فعرَّفه بي.. فسألني الأستاذ: من دمشق أنت؟ أجبتُ: لا؛ أنا من داريا. فقال على البديهة كعادته: من البلدة التي أحرقها أبو الهيذام؟! فلُذْتُ بالصمت لأستر جهلي أمام هذا العالم الكبير؛ فأنا لم أكن أعرف أن داريا أُحرقتْ في سالف الأيام، ولم أكن أعرف من هو أبو الهيذام.. وانتهى اللقاء سريعاً، وشعرت من فوري بتقصيري في معرفة تاريخ بلدي.

رجعت بعدها إلى بعض المراجع التاريخية لأعرف ما تضمنته عبارة الأستاذ؛ فوجدت إشارات تنبئ ولا تغني ـ ولم يكن كتاب (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر قد طبع منه آنذاك سوى أجزاء قليلة لم أجد فيها طَلِبَتي ـ ومرت الأيام.. حتى عقد التسعين من القرن العشرين، وطُبع الكتاب بتمامه، وبينما أنا أطالع بعض أجزائه؛ إذ بي أعثر على تلك الطَّلِبَة القديمة في خبرٍ مكتملٍ يتضمن إحراق داريا وترجمة أبي الهيذام. عندها راودتني فكرة جمع تأريخ لداريا يستغني به أبناؤها وغيرهم عن مراجعة مئات الكتب التي تناثرت فيها أخبار هذه البلدة منذ القديم حتى اليوم.

وعدتُ إلى منزلي، واستخرتُ الله سبحانه في ذلك، فاستروحتْ نفسي ما اختاره سبحانه لي. وتحولتْ مراودةُ الفكرة عزماً، ومضيت في سبيلي...

مرَّت سنوات من الجهد المتواصل الدؤوب بين كتب مكتبة الأسد بدمشق وغيرها من المكتبات العامة والخاصة، أضيفَ إليه ما تحصل لديَّ من المقابلات الشخصية مع بعض الأعلام والعارفين من الدارانيين ـ ولهم جميعاً مني أطيب الشكر والعرفان، وجزاهم الله عني خيراً ـ وكانت حصيلة ذلك كله؛ هذا الكتاب.

وإني محدِّثك عنه، قبل أن تَسلُك سُبُلَه:

ـ هذا الكتاب ليس قصة تاريخية تتألف من مقدمة وعقدة وخاتمة؛ صيغت للتسلية أو لِبثِّ أفكار معيَّنة؛ فتَحَرَّى لها مُنشِئها تسلسل الأحداث وتكاملها. وصاغها على أحسن ما يهوى، ففاز بإعجاب القراء..

ذلك أن (داريا دمشق) لم تكن من أمهات المدن حتى يكون لها تاريخ متكامل متسلسل من البدء حتى النهاية، وإنما هي أخبار متناثرة، وشذرات متفرقة، غيَّبتْها بطون الكتب.. وأول ما يجب على الباحث تجاهها؛ أن يستخرجها من الظلمات إلى النور، وأن ينفض عنها غبار الزمان، ثم يحاول تأليف ما ائتلف منها، وتقييد ما نفر وشرد، بلا زيادة ولا نقصان. وستَظهر في أثناء ذلك ثغرات وثغرات؛ يجب أن تُترك على حالها؛ حتى يتوافر لها جهد آخر يقوم بدراستها وتفسيرها، فيسدُّ الثغرة، ويُحكِم اللُّحمة.

ـ وهذا الكتاب ليس كتاب (حديث نبوي) يتقصى فيه الباحث نقد الأخبار روايةً ودرايةً، ويفصِّلها إلى صحيح وحسن وضعيف؛ لِما يتوقف على ذلك من تشريع تطمئن إليه النفوس.

بل هو كتابُ (روايات تاريخية) ـ برغم ما فيه من تراجم رجال الحديث الدارانيين ـ ولو أخضعنا الروايات التاريخية إلى مقاييس نقد روايات الحديث النبوي؛ لتهاوتْ كِبارُ كُتب التاريخ دون ذلك، ولَما ثبتت له، ولَعَمَّ التاريخ ظلامٌ أيُّ ظلام!

وبناء على هذا؛ ارتضَى مؤلفو كتب التاريخ الإسلامي؛ روايةَ أخبار كتبهم عن ابن الكلبي وابن إسحاق وأمثالهما من الأخباريين، في حين لم يرتضِ أصحاب الحديث رواية هؤلاء للأحاديث النبوية.

وللقارئ الآن أن يسأل: إذاً ما هو هذا الكتاب؟

وإليك الجواب: قال أحد العلماء ممن عانَوْا أمور تأليف الكتب: «لا يؤلِّف أحد كتاباً إلا في أحد أقسام سبعة؛ ولا يمكن التأليف في غيرها؛ وهي: ١ ـ إما أن يؤلِّف في شيء يخترعه، ٢ ـ أو شيء ناقص يتممه، ٣ ـ أو شيء مستغلِق يشرحه، ٤ ـ أو شيء طويل يختصره دون أن يُخل بمعانيه، ٥ ـ أو شيء مختلط يرتِّبه، ٦ ـ أو شيء أخطأ فيه مصنِّفه يبينه، ٧ ـ أو شيء مفرَّق يجمعه»[1].

---

(١) لشمس الدين محمد بن علاء الدين البابلي. انظر ترجمته في (خلاصة الأثر للمحبي)، وأعلام الزركلي.

وعلى القسم الأخير بَنَيْتُ.

❑❑❑

وكانت خطة عملي في هذا الكتاب مبنيَّة على جمع ما يمكنني جمعه مما تفرق من أخبار داريا وأهلها، وما كُتب عنها وعنهم في قديم الكتب وحديثها، ثم تصنيف ذلك وتبويبه، وإبرازه بصورة تُسهِّل مطالعته ومراجعته. مع عَزوِ كل خبر إلى مصدره؛ وإذا تعددت روايات الخبر الواحد؛ ذكرتُ كل ما عثرتُ عليه منها؛ لاحتمال أن يكون في بعضها ما ليس في غيره، حتى إن بعض الأخبار تجاوزتْ رواياتها العشرات ـ كما في روايات وَفَيَات بعض الأعلام ـ فحرصت على ذكرها جميعاً؛ ليتبين للقارئ مدى تطور رواية الخبر الواحد بين مصدره ومن نقل عنه بعد ذلك[1] وحتى يتسنى لي إدراك هذا؛ عمدتُ إلى إلحاق سنة وفاة كل مؤرِّخ باسمه.

هذا وقد تمرُّ بي أحياناً بعض النصوص التي تكتنفها الأخطاء النحوية واللغوية ـ وبخاصة من العهد العثماني ـ فكنت أتركها على حالها مراعاة لأمانة النقل، ثم لأنها بهذا تعطينا صورة صادقة عن الكتابة في عصرها.

وبهذه الطريقة أمكن أن يكون هذا الكتاب من تأليف المؤرخين أصحاب الروايات أنفسهم، وليس لي فيه سوى الجمع والترتيب والتبويب. لكن ليس معنى هذا أنني أترك الأمر على عواهنه، بل كنت غالباً ما أعارض الروايات بعضها ببعض حتى أصل منها إلى الصَّواب إن أمكن. وفي أثناء هذا كنت لا أهمل خبراً مهما ضؤلت فائدته، ولا أنبذ خبراً مهما بدت غرابته، حتى لَيَظُن القارئ المتعجِّل أنني حاطبُ ليل؛ أجمع الغَثَّ والسَّمين، وما أنا بذاك، إنما هي مرحلة الجمع.. أما مرحلة التحقيق والدراسة؛ فتأتي تالية لها. ولهذا رأيتني لا أناقش الروايات والأخبار التي أجمعها؛ بمقاييس الرواية والدراية؛ إلا أن تمسَّ العقيدة؛ مثل نسبة معجزات بعض الأنبياء إلى بعض الصالحين من الدارانيين، ومثل مبالغات بعض الصوفية من الدارانيين. وهنا أعتمد أحكام أئمة رجال الحديث على هذه الأخبار، وأقول فيها بقولهم.

❑❑❑

وانطلاقاً مما سلف قسمت الكتاب إلى ثلاثة مباحث؛ أما الأوَّلان فهما مقدمة الكتاب، وأما الثالث فهو صُلبُ الكتاب. وهذه المباحث هي:

---

(١) أغلب المؤرخين القُدامى ينقل بعضهم عن بعض مع إهمال ذكر المصدر.

١ ـ تحقيق اسم داريا: ناقشت في هذا المبحث مختلف الأسماء التي أوردتها الروايات لهذه البلدة، حتى توصلتُ إلى الاسم الذي أوصلني البحث إلى صحته، فاعتمدته اسماً لهذا الكتاب.

٢ ـ تمهيد: وكان تمهيداً مطوَّلاً؛ تحدثت فيه عن أفكارٍ عدَّة يجمعها خيط دقيق هو الحديث عن أرض داريا قبل ظهور قرية داريا إلى الوجود، أي في العصور الجيولوجية القديمة وآونة ما قبل التاريخ. وقد عرَّجتُ فيه على ظهور الإنسان وخلق آدم.. ثم عرَّجت على ذكر أصل الأقوام الذين عَمَروا المنطقة المحيطة ببحيرة دمشق ـ التي كانت أرضُ داريا قاعاً لها ـ. ثم عرَّجت على ظهور أرض دمشق وأرض داريا من تحت الماء إلى نور الشمس. ثم تحدثت عن نشأة قرية دمشق وبعض قرى ريف دمشق. ثم عن الأقوام الذين عَمَروا منطقة دمشق وغوطتها وكوَّنوا طبقة الأساس في مجتمعها ومجتمع بلاد الشام والعراق بعامة، مع الإشارة إلى نبي هذه الأقوام. ثم عن تفريع فروع نهر بردى ـ ومنها الداراني ـ في دمشق وغوطتها.. حتى خرجت من هذا التمهيد إلى المبحث الثالث دون أن أقطع الاتصال بينهما؛ لِأُشعر القارئ بأن هذا التمهيد ليس مجانباً صُلبَ الكتاب.

٣ ـ داريا في التاريخ: هذا المبحث هو صُلْبُ الكتاب وعُظْمه؛ وقد قسمته إلى قسمين:

أ ـ عهود ما قبل الإسلام: وتحدثت هنا عن نشأة داريا وظهورها إلى الوجود، وأصل القوم الذين عَمَروها أولَ ما عَمَروها. ثم من جاء بعدهم حتى ظهور الإسلام.

ب ـ العهود الإسلامية: وقد رتَّبت الحديث عنها بحسب القرون الإسلامية الهجرية، حيث بدأتُ بعهد الخلفاء الراشدين؛ الذي وَفَد فيه من اليمن سكان داريا المسلمون؛ الذين تنتسب إليهم جذور معظم العائلات الدارانية اليوم. ثم عهد الخلفاء الأمويين؛ الذي شهدت فيه داريا عصرها الذهبي.. ثم عهد الخلفاء العباسيين وما بعده.. فكان القرن الأول الهجري مشتركاً بين عهدَيْ الراشدين والأمويين، وكان القرن الثاني الهجري مشتركاً بين عهدَيْ الأمويين والعباسيين، ثم تتالت القرون بعد ذلك؛ كلٌّ له عنوانه.. حتى القرن الرابع عشر الهجري الذي واكب القرن العشرين الميلادي؛ حيث أرَّختُ الأحداث هنا تارة بالتقويم الهجري وتارة بالميلادي، بسبب ما لابَسَ هذه الآونة من أحداثٍ معاصِرة تعوَّد القراء مطالعتَها بالتقويم الميلادي تبعاً لتبني الدولة له منذ هذا القرن[1].

(١) حتى إن أحد مذيعي التلفاز بدمشق أوائل القرن الحادي والعشرين أعلن ذات مرة عن عطلة =

ولمَّا كان هذا المبحث هو أوسعَ مباحث الكتاب وأغزرها مادة تاريخية؛ فقد تضمن تراجم أعلام داريا على مرِّ القرون الهجرية ـ إذ لم يصلنا شيء عن أعلامها قبل الإسلام ـ وقد نسبتُ كل فئة منهم إلى القرن الذي تنتمي إليه. وهنا أودُّ أن أنبِّه على أن أغلب مؤرخي تراجم الأعلام في التاريخ الإسلامي درجوا على اعتماد سنة وفاة العَلَم؛ في نسبته إلى القرن الذي يذكرونه فيه؛ لأسباب لهم فيها غايات وأهداف[1]. وأحياناً يعتمدون سنة ولادته. وقد وجدتُ أن من الأنسب نسبةُ العَلَم إلى القرن الذي قضى فيه أخصب أيام نَتاجه، وشهد فيه أكثر أيام نشاطه وتأثيره فيمن حوله؛ فالذي عاش حياته كلها في القرن الأول ثم توفي أوائل القرن الثاني لا يصح أن ينسب إلى القرن الثاني لمجرد وفاته أوَّله، بل هو بأهل القرن الأول ألصق وأجدر. ومثله الذي ولد أواخر القرن الأول ثم عاش أغلب أيام حياته في القرن الثاني لا يصح أن ينسب إلى القرن الأول لمجرد ولادته آخره، بل هو بأهل القرن الثاني ألصق وأجدر.

وعلى هذا فقد نَسبتُ إلى القرن الأول مَن عاش في القرن الثاني حتى نهاية ربعه الأول، ونسبت إلى القرن الثاني من عاش في القرن الأول ربعه الأخير فقط، وهكذا. . .

❑❑❑

وقد نهجتُ في تراجم الأعلام منهج الاكتفاء بما ورد من أخبارهم منسوباً إلى مصدره، ذاكراً مختلف روايات الخبر الواحد، بلا إطالة غالباً، ما عدا تراجم قليلة أطلتُ فيها، وبخاصة أربع منها هي: ـ ترجمة بلال الحبشي ـ ترجمة أبي مسلم الخولاني ـ ترجمة أبي سليمان الداراني ـ ترجمة الوهراني ابن محرز ـ وذلك لأسباب:

ـ أما الأول من هؤلاء الأربعة؛ فقد اضطررت إلى تتبع أدوار حياته حتى دفنه، بسبب ما ورد عن مكان وفاته ودفنه من اختلافات وازنتُ بينها، وعارضتُ بعضها ببعض حتى توصلت إلى الأرجح والأصح.

ـ وأما الثاني والثالث؛ فقد اضطررت إلى التفصيل في ترجمتيهما لِما لمستُه من إجحافٍ بحقهما من قِبَل الدارسين؛ فهما لم ينالا ما هما جديران به من عناية ودراسة كما نال أمثالهما. وبخاصة في أيامنا هذه التي كثرت فيها دراسة الأعلام. ولا يفوتني

= عيد الأضحى بالتاريخ الميلادي فقط، ولم يُشِر إلى التاريخ الهجري!

(١) أول من نهج كتابة التاريخ في الإسلام كانوا من أصحاب الحديث النبوي، وكانوا يَعنون بكلمة (تاريخ) سنة الوفاة؛ لضبط أعمار رواة الحديث ومنع التدليس عليهم من قِبل المدلِّسين.

هنا أن أنبِّه من يهتم لهذا الأمر من الدارانيين وغيرهم؛ أن لكلتا الشخصيتين مادة دراسية كافية لأن يُكتب عنهما ويؤلَّف في كل منهما دراسة مستقلة.

ـ وأما الرابع؛ فلغنى المادة المتوافرة عنه.

❑ ❑ ❑

أما بالنسبة للنهج الذي انتهجته في نسبة الأعلام إلى داريا فكان كما يلي:

١ ـ عَدَدْتُ دارانياً كلَّ من ترجم له القاضي عبد الجبار الخولاني في كتابه (تاريخ داريا)، اقتداءً مني بالحافظ المؤرخ ابن عساكر الدمشقي في تاريخه. فقد اعتمد كلام الخولاني ونسب كل واحد من مترجَميه الدارانيين قائلاً: الداراني. رجوعاً منه إلى **(تاريخ داريا)** في الأغلب.

٢ ـ عَدَدْتُ دارانياً كلَّ من نسبه المؤرخون وأصحاب التراجم إلى داريا فقالوا: داراني ـ أو سَكن داريا ـ أو دُفن في داريا. عملاً بالقاعدة التي تقول: «من عرف حجة على من لم يعرف». علماً بأن أصحاب كتب التراجم من غير الدمشقيين أمثال: ابن سعد ـ وخليفة بن خياط ـ والإمام البخاري ـ وابن أبي حاتم الرازي.. وغيرهم، لا يذكرون في تراجمهم لأبناء داريا نسبة الداراني غالباً، وإنما يكتفون بقولهم: الدمشقي أو الشامي. أما أصحاب التراجم الدمشقيون أمثال: أبي زرعة الدمشقي ـ وابن عساكر ـ والنووي ـ والمزي ـ والذهبي ـ وابن عبد الهادي ـ وابن عبد الرزاق ـ وابن شاكر الكتبي الداراني ـ وابن كثير الدمشقي.. وغيرهم، فإنهم غالباً ما يَنصُّون في نسب أبناء داريا على: الداراني.

وأما إضفاء الجنسية الدارانية على أعلام داريا فقد كان ينطلق غالباً من القول الذي رواه الإمام النووي/ ٦٧٦ هـ في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات): «قال عبد الله بن المبارك وغيره: إذا أقام إنسان في بلد أربع سنين نُسب إليه»(١).

❑ ❑ ❑

هذا عن الأعلام، أما عن الأُسر والعائلات التي تعيش على أرض داريا اليوم، وتَتَبُّعِ جذورها وأصولها؛ فلم أعرض له. إذ إنه يحتاج إلى كتاب خاص به، يوازي هذا

(١) ١/١٣ ـ وهذا ما تعتمده الحكومة البريطانية اليوم في منح الجنسية البريطانية، ولعلها اقتبسته من هذا القول!

الكتاب ـ إن أمكن جمع مادته ـ ولن يسلم من يتصدى لهذا من الاضطرار إلى الظن والتخمين. . بسبب ندرة الإشارة إليه في الكتب بعدَ القاضي الخولاني في كتابه (تاريخ داريا) أي بعد القرن الرابع الهجري. ولعل سجلات دوائر النفوس العثمانية[١] يمكن أن تلقي بعض الضوء في هذا السبيل بالنسبة لأيام الحكم العثماني فقط.

❑❑❑

ونهجت في أول كل قَرن أن أقدم له ببعض ما وصَلَنا منه من وصفٍ عامٍّ لدمشق وغوطتها إبّانه، حتى تتضح صورة داريا آنذاك في ذهن القارئ. ثم أُتبع ذلك بما عثرت عليه من أحداثه، ثم أَخرج إلى تراجم أعلامه.

❑❑❑

ولا أدعي أنني بلغت الغاية بعملي هذا؛ إنما هو جهد المُقِلّ؛ فإن قاربتُ فبفضل الله سبحانه، وإن قصَّرتُ فمن نفسي، وقديماً قال المفكِّر الصيني (تاي تنج) ـ من القرن ١٣ م ـ بعدما انتهى من تأليف كتابه (تاريخ الكتابة الصينية): «لو كنتُ لِأَنتظر الكمال؛ لما فرغتُ من كتابي إلى الأبد». ورحم الله القاضي الفاضل حيث قال في رسالة منه إلى العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يَكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يستحسن، ولو قُدم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. . وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[٢]. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه
محمد حسام الدين بن محمد بن محمد
ابن حسين بن عبد اللطيف بن عبدالرزاق
ابن محفوظ بن محفوظ الخطيب الداراني.

(١) هي مخطوطات موجودة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وأغلبها بخط رديء.
(٢) عن مقدمة كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ١٤ ـ أبجد العلوم لصدِّيق حسن خان ١/ ٧٠.